الفصل العاشر

صورة إنسان

كنت أرى صورة طلعت حرب، فلا أستطيع أن أفهم منها شيئًا. وكالعادة فى تلك الأيام التى لم يذع فيها نشر الصور، فى الصحف - كان لكل عظيم صورة واحدة، تنشر فى كل الظروف، ويعرفها كل قراء الصحف والكتب، ولا يعرفون سواها كان لمصطفى كامل صورة واحدة مشهورة، باللابس الرسمية المحلاة بالقصب وأخرى باللابس العادية، وكان لمحمد فريد صورة مماثلة، وأخرى حينما أصيب بالمرض فى المنفى بألمانيا قبل وفاته. وكانت صورة طلعت حرب، لا تشى بشىء من صفاته: عينان مستديرتان تنظران إلى الفضاء، تخالجهما ابتسامة خفيفة ثم لا شىء.

وكنت أول مرة أقابل فيها طلعت حرب، فى بنك مصر، فى سنة ١٩٣٢، بعد أن أصبح اسمه وأصبحت صورته، من معالم الحياة المصرية. وكانت المناسبة تاريخية، أو أصبحت كذلك فيما بعد فقد ذهبت مع أخى أحمد حسين، وكنا إذ ذاك طالبين بكلية الحقوق، لم تتجاوز العشرين بل لم نبلغها، وكان أحمد قد دعا لمشروع القرش، وأصبحنا فى أشد الحاجة إلى حماية ورعاية، وكان طلعت حرب، هو الملجأ الطبيعى، الذى يمكن أن نلتمس عنده هذه الحماية والرعاية، فقد كان زعيم مصر الاقتصادى، وكان المشروع اقتصاديًا، وكان المشروع وطنيًا، وطلعت حرب أقام بنك مصر وشركاته، وفكرته الأساسية على الوطنية. استثار نوازعها، وبقى يعتمد عليها، فى كل خطوة يخطوها، وواصل الحديث عن الوطنية وعن مصر، فى كل بيان يذيعه وفى كل خطبة يلقيها. وكان طلعت حرب يدعو المصريين جميعًا، والشبان خصوصًا إلى التفكير والابتكار والنشاط، وها نحن أولاء، قد لبينا دعوته وفكرنا وابتكرنا وتحررنا..

والذى أذكره أنا لم نجد صعوبة تذكر فى مقابلة طلعت حرب، ولم تصبنا رعدة الخوف، التى تصيب الشبان الذين يقابلون العظماء لأول مرة، وقد كانت مقابلة مؤنسة، لم يسرف طلعت باشا فى الترحيب والتحية، ولم يتجهم فى وجهنا، لم يضق بنا، ولكنه لم يشجعنا، فقد كان المشروع فى بدايته، ولم تكن بوادر نجاحه قد لاحت بعد فى الأفق، وقال لنا إن الانصراف إلى الدرس والتحصيل أولى بنا، حتى تم التعليم، وبعدها نفكر فى هذه المشروعات.

ولكن لم تشب هذه النصيحة رنة التأنيب أو الرغبة فى الفت فى همتنا. ولست أدرى كيف دار الحديث، ولكن الذى أذكره أنه سألنا عن شىء يتصل بالفرنك الفرنسى، فقد كان بوانكاريه قد عمل على تثبيته، وكان هذا الموضوع، مما يدرس فى دروس الاقتصاد، لأن هذه المحاولة الموفقة كانت محل الاهتمام فى دوائر المال والاقتصاد، ولحسن الحظ، كان أحمد، مستذكرًا جيدًا، هذه المسألة فرد فى ثقة ورباطة جأش، فوقع ذلك من نفس طلعت حرب، موقعًا حسنًا، ولم يفكر فى أن يوجه إلى سؤالا آخر، وخيرًا فعل، إذ لم يكن ليجد عندى ما وجده عند أحمد من طلاقة اللسان، وحضور البديهة، واستحضار الإجابة. وبدت البهجة على أسارير طلعت حرب، وأسرع إلى عين من عيون مكتبته الفاخرة فى رف عال قليلاً، وأخرج علبة، وأخذ منها منديلين حريريين من صنع شركة اللوزى، كانا فى واقع الأمر، هدية ثمينة بحق. ولا أذكر إلى اليوم هذه الهدية وضياعها منى إلا وأحس بشىء من الحسرة.

ماذا كان أثر هذه المقابلة فى نفسى؟ كانت من حيث نتائجها العملية مخيبة للأمل، فإنه لم يعد بشىء من المعاونة التى كنا نتلمسها، ولم نجد عنده التشجيع الذى كنا نتوقعه، كما لم نجد عنده التوجيه الذى كان مفروضًا أن يتبرع لنا به فى حالة الرفض. ولكنه اكتفى بالنصيحة

البسيطة، وأكاد أقول، الرخيصة التي يستطيع أى باشا فى مصر، أن يقولها لأى طالب، تساوره فكرة من الأفكار الجديدة. ولكن مع ذلك، لم نشعر بالموجدة عليه، أو الاحتجاج، فقد أحسن مقابلتنا، وأحسن توديعنا، ولم يكن هذا بالقليل.

ولكن مشروع القرش ذاع اسمه، وأحس الناس استقباله، وأضفى الدكتور على باشا إبراهيم، عليه رعايته وكان مدير الجامعة، وجراحًا شهيرًا، ونجمًا من نجوم مجتمعنا. وأدرك طلعت حرب، أن الشابين اللذين قابلاه، كانا جادين، غير هازلين، ولعله حينما قابل بعد ذلك أولهما، وأطلقهما لسانًا، أدرك أنه جدير بالاهتمام، لذلك فقد وضع طلعت حرب، مطبعة مصر، تحت خدمة المشروع، وهناك طبعت ألوف الطوابع التى كان متطوعو مشروع القرش، يوزعونها، مقابل القروش التى يجمعونها، وأحسسنا، وأحس معنا كل متطوعى المشروع والعاملين فيه، والمشرفين عليه، أن طلعت حرب معنا بكل قلبه.

وقابلته بعد ذلك مرتين لأحصل منه على إذنه، بإقامة حفلة ساهرة لمشروع مؤتمر الطلبة الشرقيين فى مسرح حديقة الأزبكية، فلم يتردد فى الحال، فى إصدار إذنه، لزكى عكاشه، الذى كان مشرفًا على المسرح، وقد طاب لى أن أرى هذا الأخير وهو يلف ويدور، لكيلا ينفذ أمر طلعت حرب، وطلعت حرب لا يقول أكثر من أن «هو يا خويا دا شغل تياترات»! ولم أكن حريصًا على الوصول إلى قرار حاسم فى هذا الموضوع، فقد كانت كل الدلائل قاطعة بأن مشروع مؤتمر الطلبة الشرقيين من اليابان والصين والهند، إلى تركيا ومصر، مشروع عظيم الطموح، إلى الحد الذى كان تحققه ضربًا من الخيال وقد منعته فعلاً حكومة إسماعيل صدقى.

وكان طلعت حرب، فى المقابلتين الخاصتين بمؤتمر الطلبة الشرقيين، شأنه فى المقابلة السابقة فى صدد مشروع القرش، هو هو، خافت الصوت،

قليل الحركة، لا يبتسم، ولكن لا يقطب. لا يهش ويبش لضيوفه، ولكن لا ينفرهم ولا يزعجهم. ثم هو آخر الأمر قليل الكلام.

أما وجهه، فهو وجه ريفي مصرى، لولا عيناه، الضاحكتان قليلاً، لما وقع نظرك على شيء فى وجهه يستوقفك. فتقاطيع الوجه عادية، لعل له جبهة بارزة نوعًا. أما قوامه، فلا يبعث فى نفسك الشعور لا بقوته، ولا حيويته، ولا بعزمه: قصير، مع تكوين، يشعرك بأنه كان يعانى من ه ض الكساح فى صغره.

ثم حدث أن رأيته يومين وليلة، أو ليلتين ويوما، لست أذكر بالضبط فى رحلة الباخرة كوثر الأولى، من الأسكندرية إلى بورسعيد، وكان المدعوون إلى هذه الرحلة البحرية، خليطًا من كبار الصحفيين، وكبار رجال مصر، وبعض الصحفيين الصغار. وكنت من هؤلاء الآخرين. وكنا نقضى أكثر الوقت فى صالون الباخرة، حول طلعت حرب وكان معنا بعض جهابذة الكلام وبعض كبار الكتاب. كان هناك فكرى أباظة ومحمد عبد الله عنان، ومحمد الههياوى. وعلى الرغم من أن مجلس طلعت حرب لم يكن مسئما إلا أنه لم يكن مثيرًا للخاطر، أو ملهمًا بشىء جميل أو جديد. وكان هو مقلا فى الكلام، لم يذكر لنا شيئا طريفا، أو يبعث الرغبة فى تجويد الكلام والإفاضة فيه فى نفوس الذين يحبون هذه المجالس عادة، ليعرضوا على الناس بضاعتهم. ولكن الذى استطعت أن أخرج به من هذه الجلسات، أن طلعت حرب، ممن وصفهم رسول الله ﷺ بالهينين، الذين يألفون، ويؤلفون. وأن شخصيته، ليست من الطراز الذى يلجم الذين يقتربون منه، ولا من الطراز الذى يبهر جلاسه، بالحديث الممتع، المشحون بالطرائف والتجارب، ولا هو ممن يشجعون حاضرى المجلس، على هذا اللون من الحديث. هو رجل وقور هادئ نذر الكلام، لا يبتسم، وعلى وجه التحديد، لا يقهقه، ولا يبعث فيك الظن، بأنه يمكن أن يضحك ملء الشدقين، وبكل النفس فى أى موضع من المواضع.

أقيمت حفلة تكريم لترى من أثرياء مديرية الشرقية، تبرع بمبلغ ٤٦ ألفا من الجنيهات لعدد من وجوه الخير فى بلدته والمديرية، فأقام له عبد القادر مختار مدير المديرية حفلة تكريم، ودعا إليها طلعت حرب ليخطب، بوصفه من أهل الشرقية، فلبى الدعوة، وجاء يتحدث عن شرقاويته، ويقول:

«ولعلكم لو ذكرتم أنى أمت لكم بصلة قوية هى انتسابى فى الأصلين إلى مديرية الشرقية، لما دهشتم إذ ترونني بينكم فنحن وأنتم شرقاويون على السواء. ولهذا فإنى احيى حضراتكم تحية الشرقاوى إلى اخوته الحاضرين من كرام الشرقاويين وقد يسأل بعضكم ما لهذا الفخور بشرقاويته المأخوذ بأشغاله فى العاصمة وأعماله لا يكتفى بقبول الدعوة دون أن يتقدم بالكلام أليس السكوت من ذهب. أو ليس السكوت من لوازم رجال الأعمال؟».

وأهل إقليم الشرقية، أكثر من أهل أى إقليم آخر فى مصر، تعصبًا لمديريتهم أو محافظتهم، وتربطهم بعضهم ببعض علاقات حميمة، لا يدانيها إلا علاقات أهل النوبة، أو علاقات أهل الصعيد.

والعبارة التى قالها طلعت حرب فى خطبة تكريمه للمرحوم عبد اللطيف بك حسنين، هى خير إظهار لخصائصه، فهو ريفى، فيه خصائص أهل الريف وعاداتهم وتقاليدهم، ثم هو ابن بلد قاهرى، فيه غير قليل من عادات أبناء البيوت المتوسطة الوقورة فى القاهرة أو ولد فى قصر الشوق بحى الجمالية. فهو على الرغم من أنه وصل إلى رتبة الباشوية، وعلى الرغم من أنه كان فى بنك مصر بين اثنين يقطران عصرية وأوروبية، وتمدينًا غربيًّا إلا أنه بقى ريفيًّا مصريًّا، شديد الحرص على روح ومظهر الحياة المصرية النقية الخالصة، الخالية من العيوب والشوائب، التى علقت بها فى فترات الانحلال والتدهور.

كان إلى جانبه مدحت يكن باشا، رئيس مجلس إدارة بنك مصر، والدكتور فؤاد سلطان، وكان الأول بحكم كونه من أصهار العائلة المالكة،

يعيش فى جو أوروبى، يتكلم فى حياته الخاصة بالفرنسية، ويجرى فى شئونه المنزلية على النهج المألوف فى بيوت أغنياء الغرب، ومن ناحية أخرى، كان الدكتور فؤاد سلطان يتذوق كل أطايب الحياة الغربية المادية والروحية، فهو يحب الموسيقى الغربية، ويحب نظام الأكل الأوروبى، ويقوم برحلات الصيد، ويعتنى ببركة صيد له فى العياط، يدعو إليها أعيان الجاليات الأوربية فى مصر وعقيلاتهم وكان دائم التردد على أوروبا، وملاهيها وأماكن السياحة والرياضة فيها.

أما طلعت حرب، فعلى النقيض من زميليه فى رياسة بنك مصر، كان لا يلبس فى منزله إلا الجلباب الأبيض، ولا يضع فوق جلبابه إلا العباءة: حريرية خفيفة صيفا، صوفية ثقيلة شتاء. فإذا أكل، كانت الأطعمة الشرقية والمصرية أحب الألوان إليه، فالملوخية والبامية «والدقاقى» والمحاشى والمحمرات، هى أصنافه المفضلة، كما أن السوبيا والقرفة والسحلب وتمر الهندى والعرقسوس والكراوية والكركديه والنعناع والخروب، هى ما يطيب له شربه، وما يلذ له تقديمه إلى ضيوفه.

وبالجلباب وفوقه العباءة، يقابل أصدقاءه المقربين فى المنزل، ووسيلته إلى ارجاء الفراغ، حينما يخلو من العمل، ويود أن يرفه عن نفسه، إلى جانب الأحاديث، ولعب (الدمينو)، كان بارعًا فيها، وكان يحب أن يبارى فيها البارعين أمثاله، وكان ممن يلعبون معه عادة إسماعيل بركات بك تاجر الغلال وعضو مجلس إدارة بنك مصر، ولطفى محمود سكرتير عام بنك مصر، والسيد طاهر رئيس الحسابات، وعبد الحميد البنان رئيس مجلس إدارة شركة بيع المصنوعات، وكانت حلقة الدومينو، جزءًا من العمل، ففى أثناء اللعب يأتى أعضاء الندوة ليرووا له جميع أنباء المجتمع، ومن هذه الأنباء الخفيفة، يعرف أحوال عملائه المالية، من رواج أو كساد، ومن تعثر وديون أو من توفيق واستثمار أموال. وكانت ذاكرته

الخارقة تعينه على التقاط ما يهم من أنباء هذه الثرثرة التى تدور حوله وهو يلعب، ولا يبدو عليه أن ملق باله لكلام الذين حوله، ويحفظها الوقت المناسب عند طلب فتح اعتماد، لمقترض.

وكان مما يكمل هذه الحياة المصرية الصميمة، أنه إذا سمع موسيقى، كانت موسيقى عربية، أو غناء عربيًّا، وإذا قرأ أدبا كان الأدب العربى القديم، وما جرى مجراه من الأدب الحديث كأدب شوقى وحافظ، ولكنه كان يقرأ أحيانًا، الأدب الفرنسى، والشعر الفرنسى كذلك.

وكان مزاجه كله بسيطا، فهو لا يدخن، ولا يحب التدخين، ولا يسهر، ينام قبيل الحادية عشرة، ويستيقظ مبكرًا فى نحو الخامسة، أو قبيل السادسة، فإذا استيقظ قرأ أورادًا، ثم قرأ الصحف، وأخذ حمامه، ثم تناول إفطاره، فإذا كانت الساعة التاسعة إلا ربعا، كان فى البنك. لا يتأخر عن موعده إلا إذا كان فى سفر فى الداخل أو الخارج، أو كان مريضًا، وقل أن يصاب بمرض، فقد كانت بنيته قوية، وساعد على الاحتفاظ بصحته، عوائده الصحية، فلا سهر ولا سكر، ولا تدخين، ولا إسراف فى تناول المنبهات كالقهوة والشاى..

ماتت زوجته وهو بعد فى كمال الرجولة، فلم يتزوج سواها، وترملت بناته الواحدة بعد الأخرى، وكانت بناته يقمن فى منزله مقام الزوجة، يشرفن على شئون الدار، ويغنينه عن الاستعانة بسيدة من غير ذوى قرباه، ليشعن فى الدار، روح المرأة التى لا يستغنى عنها دار أعزب أو متزوج. وقد فقد كذلك طلعت حرب ولده الوحيد، فتجلد تجلدًا، يدل على صلابة إرادته، وقوة احتماله، ولعل طلعت حرب كان الوحيد بين رجال مصر الكبار، الذى احتمل حياة العزوبة على كثرة أعبائه، وشدة حاجته إلى بيت يخفف عنه ما يلاقيه من جفاف العمل فى المال والاقتصاد، والتفكير

الدائم فى الأرقام والحساب، ومواصلة الحياة يوما بعد يوم، فى وقار وتشدد وبعد عن جميع المجتمعات التى كان يغشاها علنا، أو يغشاها سرا أمثاله فى المجتمع المصرى.. ولعل الساعات القليلة التى كان يقضيها فى المساء فى جناح خصص له فى مبنى مسرح الأزبكية، الذى استأثر به زكى عكاشه حتى وفاته، لعل هذه الساعات التى كان يقضيها مع خاصة خلصائه فى هذا المكان، هى كل ما يظفر به من ترفيه وتسرية فى دنياه الجادة، وسط أعمال لا يهدأ تدفق تيارها، مع ما فيها من مسئوليات غير قليلة.

وقد كان من أحب المتحدثين، وأقربهم إلى نفسه توفيق باشا دوس المحامى الكبير، وقد كان يمر به كثيرًا فى مكتبه بدار البنك فى الصباح.

وفى خطبة طلعت حرب فى تكريم عبد اللطيف حسنين، عدا اعتزازه بشرقاويته، مما يدل على روح أصيلة، الكثير مما يكشف عن عقليته، وهى عقلية المسلم المؤمن بالإسلام، فقد قال مثلاً: «ولست أعرف إذا كان عبد اللطيف بك يعامل البنوك أو لا يعاملها ويعرف فائدة الإيداع أو لا يعرفها. ولكنى أعرف يقينًا أنه كان أمهر من الذين يعاملون البنوك لأنه عامل الله سبحانه وتعالى برعاية الضعفاء والمحرومين، فكان كلما زاد من رعايته إياهم زاد الله من نعمائه، وكان المرحوم والده على ما علمت من الأتقياء الصالحين، ومن العصاميين العاملين. فورث عن أبيه هذه الصفات، ووجد من آى الذكر الحكيم دستورًا لحياته العامرة وحفظ بالذات منها قوله تعالى: ﴿ إن تقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعفه لكم، ويغفر لكم والله شكورٌ حليمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿ مَن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾.

ثم قال بعد كلام كثير، ما يتصل بهذا المعنى ويكمله:

«لكنى أطمع فى شىء واحد هو ألا تكون الحياة المادية الجارفة علينا من الغرب سببًا فى إضعاف قوة الفضائل القومية، خصوصًا فضائل البر بالضعفاء، والإحسان، والإحسان وهو المأثور عن المصريين منذ القدم.

«وإذا كانت ماديات الغرب قد بدأت تتغلغل فى حياة الشرق فى حياة مصر، وكان يخشى أن تجتاح فضائل البر الفردى الممتاز به الشرقى، فهل تتذكر من تقاليدنا ما كان يقوم به بيت ا لمال من أداء الحقوق المفروضة للضعفاء من المرضى واليتامى والمصابين والمعوزين».

فانظر إلى هذا المصرفى، المالى الاقتصادى الداعى إلى إقامة المصارف، وحث الناس على التعامل فيها، والإيداع فيها، ينسى نفسه، فتبدو حقيقته، ريفيًا معتزًا بالشرقية، وفخورًا بأحد أبنائها المحسنين، ثم متحدثًا عن القرض الحسن، وعن التعامل مع الله الذى يفضل التعامل مع البنوك، ثم الذى يخوف من ماديات الغرب التى كان خليقا به أن يرحب بها، وأن يدعو إلى تأكيدها فى بلادنا، وتفضيلها، لأن فى مثل هذه الدعوة، ما يضمن لفكرة (البنوك) والتعامل معها، الرواج والغلبة.

ولكنه بقى محتفظا، مع نجاحه المادى، بأصوله الروحية، وقد حدثنى من كان أوثق الناس به صلة فترة غير قليلة، أنه كان يقيم فى شقة خصصت له فى باريس أثناء إقامة معرض باريس الدولى الذى اشتركت فيه شركات بنك مصر بعرض منتجاتها. وفى أحد الأيام نزل طلعت باشا مسرعًا من الشقة لعمل له، فنسى بعض حوائجه فيها، فأرسل مدير مكتبه ليحضر له ما فيه فلما فتش عن هذه الحوائج هنا وهناك، وجد قطعة ورق صغيرة تحت وسادة طلعت حرب مكتوب عليها بخط يده: «ما ذكر عبد اسم ربه أربعين يومًا إلا تفجرت ينابيع الحكمة على قلبه ولسانه» هذه الورقة المكتوبة بخط يده والموضوعة تحت وسادته، التماسا للبركة وللنجاة

من الشر، هى قطعة من حياة طلعت حرب الباطنية، التى تمثله تمامًا، كما تمثله خطبة الزقازيق، وما فيها من حديث عن القرض الحسن، والمعاملة مع الله، والخوف من ماديات الغرب، والحرص على روحانيات الشرق، الشعور بالراحة عند ذكر بيت مال المسلمين وتقاليده.

وكان يتفاءل ويتشاءم، ذكر له يومًا أحد معاونيه، فقال: «لا. لا يا خويا ده ما يحطش ايده فى حاجة إلا وباظت».

وقد كان طلعت حرب المسلم، يكره أن يقدم الخمر فى حفلاته، سواء كانت هذه الحفلات فى مصر أو فى الخارج، وسواء كانت لمصريين فقط، أو لمصريين وأجانب، أو لأجانب فقط، ولكن بعض الذين حوله ضغطوا عليه ضغطًا شديدًا ليقدم الخمر فى حفلة أقيمت فى أعقاب المعرض الدولى فى باريس، للجنة من كبار موظفى وزارة الخارجية الفرنسية، فقبل على ألا تقدم الخمر على الموائد، وأنما يكتفى بشراء زجاجة خمر من الصنف الفاخر تبقى عند (الميتردوتل) يقدم منها لمن يشاء. وفى آخر لحظة، بدا لطلعت أن يدعو الدكتور محجوب ثابت إلى هذه الحفلة، فاعترض على هذه الدعوة منظموها لأن المدعوين جميعًا من كبار موظفى وزارة الخارجية، ولا موضع لمحجوب ثابت فيها، ولكن طلعت حرب أصر على دعوة محجوب، فدعى، وبعد أن تناول الطعام طلب شيئًا من البيرة ثم شيئًا من النبيذ وهكذا راح يخلط بين الخمور، حتى دارت رأسه، فوقف يخطب وهو يتمايل، وأخذ يشيد بأعمال طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى، بما أفسد جو الحفلة الرصين، وأضاع وقارها، وأوهم الضيوف أن محجوب ثابت موعز له من المضيف، بأن يسمع الضيوف الأجانب أناشيد المدح والثناء فيه. وزاد الطين بله، أن طلعت حرب عاد إلى مكاتب بنك مصر فى فرنسا بعد الحفلة، فوجد فى مدخل هذه المكاتب، إنسانا نائما على مقعد طويل، فلما دنا منه، تبين أنه محجوب ثابت راح يغط فى نوم ثقيل تحت عبء ما شرب من خمر.

ولم يغفر طلعت حرب مطلقا للذين نصحوا له بتقديم الخمر، ونصيحتهم، واعتبرهم مسئولين عما أصاب حفلته من بوار، لأنه لولا الخمر، لما هذى محجوب ثابت هذيانه، ولما اضطر إلى أن ينام ببذلته فى مدخل البنك.

ولعل هذا يجرنا إلى جانب آخر من خلق طلعت حرب، فإنه لا ينسى أصدقاءه القدامى، ويحب أن يكرمهم، كلما أتيحت له فرصة الإكرام، مهما طرأ على مراكزهم من تدهور. ومن ذلك القبيل أن بنك مصر، أقام على إحدى المناسبات الهامة، حفلة دعا إليها من الصحفيين كبارهم، ثم أملى على سكرتيره الخاص اسمى صحفيين مجهولين، سأل المشرفون على الحفلة وتنظيمها عنهما فى جميع الأمكنة. فلم يجدوا أحدًا يعرفهم، فقد كانا يوما صحفيين معروفين، ولكنهما بعدا عن دنيا الصحافة شيئًا فشيئًا حتى لم يعد أحد يسمع عنهم، وكان الأدهى الاهتداء إلى عنوانيهما وإيصال بطاقة الدعوة إليهما قبل موعد الحفلة، ووصلت الدعوة أخيرًا فى الموعد، ولبى الصحفيان الدعوة، فوجدا طلعت حرب فى انتظار مقدمهما، يحتفى بهما، ويؤهل ويرحب.

ولما انفضت الحفلة بنجاح التفت طلعت حرب إلى مساعديه وقال: «ما بالكم ضقتم ذرعًا بمدعويين اثنين وسط مئات من المدعوين. إن هذين كانا معنا، حينما لم يكن معنا أحد أو حين كان معنا القليلون. وقفا معنا فى وقت ضن فيه علينا الآخرون بالثقة. فكم يكون جحودنا كبيرًا، حينما ننساهما لأننا كبرنا ونجحنا، ولأن الله أراد لهما العزلة وانطفاء الشهرة» والحق أن هذا الكلام، نابع من نفس شرقية، تقيس الأمور، بمقاييس خلقية وروحية، لا بمقاييس النجاح والشهرة.

وجريا على نفس المنهج، كان يقف طلعت حرب فى جانب الضعفاء الذين كانوا بالأمس أقوياء، ويطيل عليهم الصبر، ويلتمس لهم العذر،

ويترفق بهم، ويدعو معاونيه إلى الترفق بهم مثله، من ذلك أنه اشترى شركة من الهر ليندمان الألماني كانت مخصصة لتصدير الأقطان، وقد أصبحت هذه الشركة فيما بعد، شركة مصر لتصدير الأقطان. وقد عين طلعت حرب الهر ليندمان عضوًا منتدبًا لهذه الشركة بعد تمصيرها، مقابل مرتب ثابت. ثم عين بعد ذلك في نفس الشركة، الأستاذ محمود الدرويش مديرًا عاما وكان قد أتم دراسته في الاقتصاد من لندن، وعاد إلى بلاده، فوقع سوء تفاهم أكثر من مرة بين ليندمان والدرويش الذى كان يأخذ على ليندمان بعض التصرفات كشرائه سيارة خصوصية له أو لزوجته على حساب الشركة. فكان طلعت حرب يضيق بهذه المآخذ، ويحاول أن يقنع الدرويش بأن نجاح الشركة راجع إلى صلات ليندمان ببيوت التصدير في الداخل وبيوت القطن في الخارج، وأن ذلك يدعو إلى الإغضاء عن هذه الخسارة الطفيفة مقابل الأرباح العظيمة، ولكن الدرويش لم يكن يجد من مزاجه، وعقليته ما يعينه على تقبل منطق طلعت حرب وارتضائه، مما أدى آخر الأمر إلى اعتزال الدرويش العمل في الشركة، فقبل طلعت حرب هذه النتيجة وهو يقول «ارحموا عزيز قوم ذل».

* * *

يستيقظ طلعت حرب مبكرًا، كما قلت، ويبدأ نهاره بوضع نقطتين من الليمون البنزهير في عينيه لأنه كان يؤمن بأن هاتين النقطتين خير غسيل للعيون، وأنه إذا كان قد احتفظ بسلامة عينيه، وقوة إبصاره، دون الاستعانة بنظارات طبية حتى وفاته، فمرد ذلك إلى هاتين النقطتين، وكان إذا فرغ من أوراده، أخذ يقرأ في هدأة الصباح، تقاريره إلى حوالى الساعة الثامنة والربع، فيركب السيارة ليكون في البنك في نحو التاسعة إلا ربعا قبل الموعد الرسمي لافتتاح البنك بربع ساعة. وعقب وصوله إلى مكتبه،

يدخل إليه سكرتيره أمين محمد، وهو أحد ذوى قرباه البعيدين، فيعرض عليه البريد، وبعض الخطابات الشخصية، وينقضى من النهار حتى الساعة الثانية فى مقابلة الزائرين والعملاء وأعضاء مجالس الإدارات فى الشركات المختلفة، ثم يعود إلى بيته، ولم يكن ينام فى القيلولة.

ثم يعود إلى مكتبه فى المساء، فى نحو الساعة السادسة، وفى السابعة يستقبل زميله فؤاد سلطان الذى يخلو به نصف ساعة كل يوم يتداولان خلالها فى الشئون الهامة، ويتبادلان الرأى. والعمل فى مكتب طلعت حرب فى المساء، هو العمل الأساسى، أى عمل الدراسة والنظر فى المشكلات، وبحث المشروعات.

وقد كانت ذاكرة طلعت حرب القوية الحادة التى تلتقط كثيرًا من التفصيلات وتحتفظ بها، خير معين له فى تسيير أعمال البنك، وقد كانت الكشوف تعرض عليه، وهى تتضمن المئات من أسماء العملاء، فكان يكفيه أن يلقى نظرة عليها، ليعرف رصيد كل عميل يهمه امره بالجنيه والقرش والمليم، دون كتابة مذكرة للرجوع إليها، كما كان يسمع لكبار وصغار الموظفين وهم يعرضون الأعمال عليه، فيعى أولاً ما يقولون، ويذكرهم بما قالوا هم أنفسهم بعد شهور وربما بعد سنوات، فيدهشهم أن ما قالوه، لا يزال باقيًا، فى ذاكرة (الباشا) على كثرة مشاغله، وتعدد وتنوع المهام الموكولة إليه. وقد يذكرهم أحيانًا بما نسوه فيرجعوه إلى أوراقهم ومذكراتهم، فيجدون أن ما قالوه خطأ، وأن ما قاله هو الصحيح.

ومن لازمات طلعت حرب كلمة (يا خويا)، يقولها للجميع، للمقربين وغير المقربين، كذلك حرصه على أن يكون ما يأكله وما يلبسه وما يستعمله مصريًا أو عربيًا أو على الأقل شرقيًا، وكان لا يحب من كبار الفنيين الذين يعاونونه أن يقلدوا النماذج الأوربية أو ينسخوها، وقد انعكس مزاجه هذا

وخلقه، في الأطرزة العربية التي استعملها في جميع أبنية بنك مصر وفروعه، وقد حدث أن علم طلعت حرب أن المشرف على قسم بنك مصر في باريس، قد سحب من حسابه ثلثمائة جنيه في نهاية أيام المعرض، فاستدعاه وسأله عن غرضه من سحب هذا المبلغ، فلما فهم من مرءوسيه أنه ينوى أن يشترى من باريس قبل عودته بعض الهدايا لأقاربه وأصدقائه نهاه أن تكون هداياه باريسية. وهو عنوان من عناوين البنك، وأمره ألا يشترى شيئًا، على أن يقدم له هو هدايا من منتجات بنك مصر وشركاته من المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية ما قيمته أكثر من ثلثمائة جنيه بغير مقابل، وأذعن الموظف لأمر (الباشا) ووعد ألا يشترى من باريس شيئًا.

وكانت منتجات شركات بنك مصر، دائمًا عند طلعت حرب في بيته ومكتبه يقدمها كنموذج لضيوفه المصريين والأجانب، والأجانب قبل المصريين. بل أن المنتجات المصرية عمومًا لو لم تكن من إنتاج شركات بنك مصر، كانت تفرحه وتدعوه إلى الفخر إن كانت جيدة الصنع، وكان يتحدث عنها، باعتزاز، ويسأل عن أصحابها، ويحب أن يشجعهم، ويدعو الذين حوله إلى التعرف عليهم وزيارتهم والتعامل معهم، وكان طلعت حرب يحمل معه في زياراته للأقاليم كميات من إنتاج شركات بنك مصر، ويدعو الأعيان والعمد، لمقابلته، يهدى إليهم قطعًا من هذا الإنتاج، ويستحثهم على شرائه، ويثبت لهم أنه أمتن من الإنتاج الأجنبي لاسيما المنتجات اليابانية التي كانت آنذاك تهدد المنتجات المصرية، ورخصها غير العادى، تطبيقًا لسياسة الإغراق.

وكان طلعت حرب لا يعرف الأجازات والعطل ففي أيام الأحاد، وهي أيام العطلة الرسمية للبنك، كان يذهب إلى البنك، ويطيل النظر في الدفاتر، ليطمئن إلى أن الظاهر الطيب للعمل، مطابق للباطن والواقع، وأنه

غير مخدوع فيما يبدو من انتظام الأعمال وأمانة الموظفين، وسلاسة الأمور جميعًا.

* * *

ولد طلعت حرب في ٢٥ من نوفمبر سنة ١٨٦٧ بقصر الشوق بحي الجمالية بالقاهرة، أي في حي من صميم أحياء القاهرة؛ التي تعيش فيها قاهرة خمسمائة سنة مضت، قبل ميلاده أو يزيد، فهنا كل قديم من أسباب الحياة، ووسائلها، وطبائعها وتقاليدها، في التجارة والتعامل، والزواج والمصاهرة، والسمر والسهر، إعداد الطعام وتناول الشراب، وإزجاء الفراغ في المنادر، والمقاهي، والتردد على المسجد والانقطاع له، وسماع القرآن والتلذذ به، وحجاب المرأة، وسيادة الرجل، وقراءة الأوراد في الأسحار، والليل الساكن، والحرص على صلات الرحم، والبر بالفقير، وستر العائلة وإقالة العثرة، واحترام الشيوخ، وخفض الصوت، والتأدب في حضرة الكبار، والإعظام من العمل، والتقدير الكامل للمال ولأصحابه، وللجاه والنفوذ والمتمتعين به.

في هذا الجو، ولد ونشأ، واستنشق هواء الحياة، وعبيرها طلعت حرب، وأبواه من الشرقية وأبوه موظف صغير في مصلحة السكك الحديدية، فخرج طلعت حرب ريفيا في الأغلب الأعم من عاداته، وعقليته، وتناوله للأمور، وابن بلد قاهري في الباقي من أخلاقه وطباعه.

وقد بقي هكذا، حتى فرغ من هذه الدنيا، ولقي ربه الكريم.